المحاضرة الحادية عشرة: التّفسير؛ تاريخه وطرقه

تعريف التّفسير [1]:

التّفسير في اللّغة : مأخوذ من مادة "فَسَرَ": وهي كلمة تدور على معنى ظهور الشيء , وبيانه, وتوضيحه كما قال تعالى: **(وَلاَ يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً)** – الفرقان 33- أي: تفصيلا وتوضيحا , ومنه فسّرت الحديث؛ إذا بيّنته ووضّحته.

التفسير في الاصطلاح :

"علم يعرف به فهم كتاب الله ؛ المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم, وبيان معانيه , واستخراج أحكامه وحكمه".

وقيل: "علم يفهم به كلام الله تعالى على قدر الطاقة البشرية".

أهمّية تدبّر القرآن :

أمرنا الله تعالى بتدبر هذا الكتاب العزيز, والسعي لفهم معانيه ؛ لأن ذلك طريق الإيمان، والعمل الصالح، قال ابن قيم الجوزية: " ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر, ويتفكر فيه, ويعمل به, لا لمجرد التلاوة مع الإعراض عنه ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه, فالقرآن أولى بذلك , وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه , فكيف بكلام الله ؛ الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم ".

ومما يؤكد على أهمية فهم القرآن أن الله ذمَّ كل من أعرض عن تدبر معانيه، فقال تعالى: **(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)** – محمد 24-. وما ضلَّت الفرق من أمّة الإسلام إلاّ لعدم فهمهم القرآن الكريم.

طرق تفسير القرآن الكريم :

[1] البرهان للزركشي، 137/2 ومابعدها.

نسبة لاختلاف مناهج ودرجات المفسرين في فهم وتفسير القرآن الكريم , وضع العلماء طرقاً ينبغي أن يسير عليها كل من أراد أن يفسر هذا الكتاب العزيز وفق منهج سليم وهي ستة طرق متدرجة متوالية وفقها يفهم القرآن وتستنبط معانيه وحكمه وهي:

1- تفسير القرآن بالقرآن :

هو أعلى أنواع التفسير؛ لأنه توضيح لكلام الله بكلام الله؛ فإن القرآن الكريم قد يجمل في موضع ويفصل في موضع آخر , ويعمم في موضع ويخص في موضع آخر , ويطلق الحكم في موضع ويقيده في موضع آخر ونحو ذلك

وأول من اعتنى بهذا النوع من التفسير هو النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد فسر ما أشكل على الصحابة .

2- تفسير القرآن بالسنة :

إذا لم نجد للقرآن تفسيراً في القرآن رجعنا إلى السنة النبوية وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلمه وأعلم الخلق بعد معلمه جبريل بالقرآن الكريم, وقد تكفل الله له ببيانه، وهو معصوم بالوحي، وهو المكلف بشرحه وبيانه للناس من خلال أقواله, وأفعاله, وتقريراته, وصفاته, فلا عجب أن يكون أعلم الناس به.

3- تفسير القرآن بأقوال الصحابة :

إذا لم يجد الإنسان تفسيراً للقرآن في القرآن , ولا في السنة , رجع إلى أقوال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وذلك للآتي :

أ- أنهم تعلموا على يد أعظم معلم ، بل أكثر المعلمين بركة ألا وهو النبي صلى الله عليه وسلم، فهو الذي قد وضح لهم معاني القرآن بأوضح بيان , شرح لهم معانيه , وفصل لهم مجمل أحكامه , وبين لهم ما أشكل عليهم من فهم , ورعاهم رعاية خاصة , ودعا لبعضهم بفقهه .

ب- أننا أمرنا بالاقتداء بهم , واتباع منهجهم , لما لهم من فهم صائب , وعمل صالح.

ج- أنهم شاهدوا التنزيل وعاصروا الوحي , وعرفوا أحوال نزول القرآن, فهم أعرف الناس بأسباب نزوله , وناسخه ومنسوخه , وعامه وخاصه , ومطلقه ومقيده , ومحكمه ومتشابهه ونحو ذلك .

د- أنهم كانوا أهل لغة ونزل القرآن بلغتهم , فهم أفهم الناس لمعانيه, وأحكامه , وهديه .

4- تفسير القرآن بأقوال التابعين :

إذا لم نجد تفسيراً للآية في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة رجع كثير من العلماء إلى أقوال التابعين وذلك :

أ- أنهم تعلموا على يد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ خاصة الذين أخذوا منهم علماً كثيراً كمجاهد وسعيد بن جبير , وعكرمة مولى ابن عباس , وعطاء بن أبي رباح , وغيرهم .

ب- أنهم عاشوا في القرون المفضلة ؛ التي قربت من عصر النبوة, ولم تظهر فيها البدع المضلة ظهوراً بيّناً .

ج- لأنهم عاشوا في عصر اللغة الذهبي قبل أن تفسد العجمة اللسان العربي, فهم أعلم الناس بعد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بلغة القرآن.

د- أنهم كانوا أئمة في العلم والصلاح, عرفوا باستقامة في المنهج ، وصلاح في المعتقد ، وحسن سيرة في العبادة وصدق وأمانة وورع وتقوى.

تفسير القرآن وفق لغة العرب :

إذا لم يجد المفسر لتفسير الآية تفسيراً لا في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة, ولا في أقوال التابعين يرجع الإنسان إلى اللغة العربية التي نزل هذا القرآن بها كما قال تعالى: **(وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)** ولا يمكن لإنسان يجهل لغة العرب نحواً وصرفا وبلاغة ومعنىً أن يفسر القرآن.

تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد :

وهذا النوع قسمه العلماء إلى قسمين: رأي محمود, ورأي مذموم .

أ/ فالرأي المحمود: هو كل رأي مستمد من القرآن والسنة, وكان صاحبه عالماً باللغة العربية وأساليبها والشريعة وأصولها .

ولكن ينبغي أن يكون الرأي والاجتهاد فيما لا مجال للنص فيه, وليس للنبي صلى الله عليه وسلم فيه قول قاطع , ولابد أن يكون ممن كان أهل للاجتهاد , ممن عرف لغة القرآن , وألم بقواعد الشرع وأصوله .

ب/ الرأي المذموم: هو تفسير القرآن بمجرد الرأي والهوى, وهو مذموم لأنه قول على الله بغير علم في كلام الله ، وهو من كبائر الذنوب ، ومن أعظم ما نهى الله عنه قال تعالى: **(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولآئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)** – الإسراء 36 – ولما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: " من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار " ، وكل الأدلة التي جاءت عن النبي

صلى الله عليه وسلم وما نقل عن الصحابة في ذم الرأي إنما المراد به هذا النوع من أنواع الرأي وهو الرأي المذموم .

أهمّ كتب التفسير :

نذكر هنا أمثلة لكتب في التفسير اجتمعت فيها كل طرق التفسير الصحيح أو غالبها, وذلك لأنها قامت على منهج سليم والأخذ منها أولى من غيرها؛ حتى يستطيع الإنسان أن يميز بعد ذلك وهو يقرأ في الكتب الأخرى المفيدة لكنها لم تخلُ من ملاحظات عليها:

1- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري والمتوفى سنة "310هـ.

2- معالم التنزيل : للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة 516هـ

3- تفسير القرآن العظيم: للإمام أبي الفداء عماد الدين بن إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي توفي سنة 774هـ

4- فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية في علم التفسير: للإمام أبي عبدالله محمد بن علي بن محمد الشوكاني, توفي عام 1250هـ

5- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للعلامة الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي المتوفى سنة 1393هـ

6- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : للشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي المتوفى سنة 1376هـ